{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} * {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً} * {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}(1-3)

النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها، و منع من قحطها، و منه قول الشاعر:

إذا انصرف الشهر الحرام فودّعي بلاد تميم و انصري أرض عامر

يقال نصره على عدوّه ينصره نصراً: إذا أعانه. و الاسم النصرة. و استنصره على عدوّه: إذا سأله أن ينصره عليه. قال الواحدي: قال المفسرون: {إِذَا جَاء} ك يا محمد {نَصْرُ ٱللهِ} على من عاداك، و هم: قريش {وَ ٱلْفَتْحُ} فتح مكة. و قيل: المراد نصره صلى الله عليه و سلم على قريش من غير تعيين. و قيل: نصره على من قاتله من الكفار. و قيل: هو فتح سائر البلاد. و قيل: هو ما فتحه الله عليه من العلوم، و عبر عن حصول النصر، و الفتح بالمجيء للإيذان بأنهما متوجهان إليه صلى الله عليه و سلم. و قيل: "إذا" بمعنى قد. و قيل: بمعنى "إذ". قال الرازي: الفرق بين النصر و الفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً، و النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، و عطف عليه الفتح. أو يقال النصر كمال الدين، و الفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة. أو يقال: النصر الظفر، و الفتح الجنة، هذا معنى كلامه. و يقال: الأمر أوضح من هذا و أظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء و غلبهم، و الاستعلاء عليهم، و الفتح هو فتح مساكن الأعداء، و دخول منازلهم.

{وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوٰجاً} أي: أبصرت الناس من العرب، و غيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجاً بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، و قد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً، أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، و اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة، و مقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، و ذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين. و انتصاب {أفواجاً} على الحال من فاعل يدخلون، و محل قوله: يدخلون في دين الله النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، و إن كانت بمعنى العلم، فهو في محل نصب عى أنه المفعول الثاني.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} هذا جواب الشرط، و هو العامل فيه، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله. و قال مكي: العامل في "إذا" هو {جاء}. و رجحه أبو حيان، و ضعف الأوّل بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، و قوله: {بِحَمْدِ رَبِّكَ} في محل نصب على الحال، أي: فقل سبحان الله ملتبساً بحمده، أو حامداً له. و فيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله و لا بال أحد من الناس، و بين الحمد له على جميل صنعه له، و عظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر، و الفتح لأمّ القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، و الأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن.

و نحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بالاستغفار، أي: اطلب منه المغفرة لذنبك هضماً لنفسك، و استقصارًا لعملك، و استدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى.

و قد كان صلى الله عليه و سلم يرى قصوره عن القيام بحق الله، و يكثر من الاستغفار و التضرّع، و إن كان قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر. و قيل: إن الاستغفار منه صلى الله عليه و سلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. و قيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته، و تعريضاً بهم فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار. و قيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. و قيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة. و الأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة، و فرحاً بما هيأه الله من نصر الدين، و كبت أعدائه، و نزول الذلة بهم، و حصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم الله رسوله صلى الله عليه و سلم أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح، و التوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: **" سبحانك اللَّهم و بحمدك اغفر لي إنك أنت التوّاب "** قال قتادة، و مقاتل: و عاش صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه السورة سنتين. و جملة: {إِنَّهُ كَانَ تواباً} تعليل لأمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم، و يرحمهم بقبول توبتهم، و توّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين. و قد حكى الرازي في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} فقالوا: فتح المدائن و القصور، قال: فأنت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه و سلم نعيت له نفسه. و أخرج البخاري، و غيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلاّ ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزّ و جلّ: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم، فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه الله له، قال: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} فذلك: علامة أجلك {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوابَا} فقال عمر: لا أعلم منها إلاّ ما تقول.

و أخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} حين أنزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم أن نفسه نعيت إليه. و أخرج ابن أبي شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر من قول: **"سبحان الله و بحمده، و أستغفره و أتوب إليه"** فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله و بحمده، و أستغفر الله و أتوب إليه فقال: **"خبرني ربي أني سأرى علامة من أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله و بحمده، و أستغفر الله و أتوب إليه، فقد رأيتها: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} فتح مكة. {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوٰجاً * فَسَبِّحْ**

بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوبَا}" و أخرج البخاري، و مسلم، و أبو داود، و النسائي، و ابن ماجه، و غيرهم عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول في ركوعه و سجوده: **"سبحانك اللهم و بحمدك، اللَّهم اغفر لي"** يتأوّل القرآن يعني: {إذا جاء نصر الله و الفتح}، و في الباب أحاديث.

و أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **"جاء أهل اليمن هم أرقّ قلوباً، الإيمان يمان، و الفقه يمان، و الحكمة يمانية"** و أخرج الطبراني، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة إذ قال: **"الله أكبر قد جاء نصر الله و الفتح، و جاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم، الإيمان يمان، و الفقه يمان، و الحكمة يمانية"** و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، و سيخرجون منه أفواجاً"** و أخرج الحاكم و صححه عن أبي هريرة قال:تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوٰجاً} قال: **"ليخرجنّ منه أفواجاً، كما دخلوا فيه أفواجاً"**.